في غيبوبة التفاهة

بسمة النسور

قال محمود درويش في قصيدة تختصر معنى السأم من الوجود: «لا شيء يعجبني» (ديوان «لا تعتذر عمّا فعلت» 2004). بأقلّ الكلام، استعار درويش في القصيدة، التي تحمل العنوان ذاته، شخصية عشوائية لمسافر في حافلة يمضي في رحلة إلى نقطة وصول مجهولة وحمّلها الوجع كلّه، فباح المسافر الحزين بأنّ لا شيء يعجبه (لا الراديو ولا صحف الصباح ولا القلاع على التلال)، ويضيف باستسلام مطلق: «أريد أن أبكي». واستدعى الشاعر أحزان غرباء من رفاق الطريق، في سياق القصيدة البديعة، من نماذج إنسانية مختلفة. استدعى أمّا نام ابنُها في قبر مُعدّ لها رحل عنها من دون وداع، وشابًّا جامعياً غلبه اليأس (درس الأركيولوجيا من دون أن يجد الهُوّية في الحجارة)، وجنديّاً أنْخنته الحروب، يجمعهم الإحساس المرير نفسه، غير أنّ راكب الحافلة، الذي نكا الجراح، يقول للسائق العصبي: «أمّا أنا فقد تعبت من السفر.. فانزلني هنا».

كتب درويش ذلك في زمن أقلّ وطأةً بملامح وأوجاع مختلفة، رغم ثقلها على الروح المُتعبة، غير أنّها مقارنة بما نمُرُّ به من أهوالٍ في لحظتنا الراهنة هذه، تبدو أقلّ قسوة وإيلاماً. في ذلك الزمن، غير البعيد، لم نُكن قد خذلْنا بعد أنسانيتنا بعد، بل اتقنّا مهارة التضامن مع عذابات الآخرين، وكانت فلسطين قضيتنا الأولى وجرحنا الغائر، حينها، أثّرت بنا القصائد، وأبكتنا الصورة الحزينة، وأثارت غضبنا نشرات الأخبار وبرامج الحوارات السياسية. باختصار، اكترثنا بما يدور حولنا، وتمسّكنا بأحلام الخلاص والحرّية والعدل، ولم نفقد الإيمان بحتمية العودة وإحقاق الحقّ.

لعلّ درويش كان محظوظاً إلى حدّ بعيد فرحل قبل أن يشهد هذا الدرك الأسفل، الذي تعيشه أمّة تخلّت عن نفسها، وتجاهلت عن سابق إصرار وتصميم معاناة أهل غزّة، فلم تعد تهتزّ حتّى بمتابعة، ولو من موقع المُتفرّج، مسلسل القتل والذبح والتجويع والتشريد، وانهمكت في أخبار المطرية شيرين، ومُستجدّات خلافها مع عائلتها، ونزاعها مع شركة روتانا، وإشاعة خطوبتها، ولم يُطمئن للجماهير بالٌ حتّى استمعت إلى تطمينات بصوت المطربة، كثيرة الشكاك، تُؤكّد أنّ في جعبتها باقة من الاغنيات الجديدة، التي سوف تُسعدُ جمهورها الوفي. وفي حين تدقّ إسرائيل طبول الحرب مُهدّدة لبنان بالاجتياح، تُخصّص محطّة لبنانية أكثر من ساعتَين لحوار مع الإعلامية المصرية ريهام سعيد، للحديث عن معاناتها، إثر فشل عمليتها التجميلية، التي أدّت إلى تشويه وجهها. تحدّثت ريهام عن قصتها الأليمة بمصاحبة موسيقى حزينة، وبتأثر واضح في ملامح المذيع، واستضاف كوميديان لبناني، تتسم برامجه الحوارية بالإسفاف والابتذال، الإعلامية الأردنية نادية الزعبي، التي تتوهّم في نفسها خفّة الظلّ، كي تسخر من المرأة الأردنية، وتحطّ من شأنها، وتضعها في مقارنة سخيفة مع المرأة اللبنانية. وتقوم الدنيا في مصر بسبب الإهانة التي وُجّهت للمطربة أنغام، حين لم يحضر حفلها في المغرب سوى عددٌ قليل، وحتّى اللحظة، لم يتوقّف الجدل بخصوص الصفعة التي وجّهها عمرو دياب إلى معجب في حفل زفاف ابنة أحد الأثرياء، واستضاف الإعلامي محمود سعد، الذي تمنّى في تصريح أن تسقط الطائرة به وهو في طريق عودته من الحجّ، كي يقابل وجه ربّه مغسولاً من الذنوب، مُضحّياً بكل بساطة بالركاب وبالطيّار وبطاقم المضيفين. نقول، استضاف سعد مطرياً شهيراً محدود الذكاء في حضور جمهور مصري عريض يبدو سعيداً خالياً من الهموم. ذلك كلّه، وأكثر، يجري في وسائل إعلامنا المتهالكة، فيما أهلنا في غزّة يُذبحون، ويُنكّل بهم في مرأى ومسمع هذه الأمّة المُستغرقة في غيبوبة التفاهة والاضمحلال والانحدار، ما يستدعي من كلّ وطني حرّ صاحب ضمير أن يصرخ من عمق خيبته في وجه سائق عصبي أرعن متهوّر، أمّا أنا فقد أتعبني السفر، أنزلني هنا...

هل ما زالت فرنسا بلداً عريقَ الديمقراطية؟

العهدي مبروك

وفرنسا تقرأ نتائج انتخاباتها التشريعية، التي جرت أمس، لا أحد يزايد في عراقة التجربة الديمقراطية في هذا البلد، وهي التي أهدت العالم الحديث إرثاً مُهمّاً صاغ أسس الديمقراطية وحقوق الإنسان؛ إطاحة نظام ملكي مُستبدّ، وإعلاناً عالمياً لحقوق الإنسان والمواطن الفرنسي، ومؤسّسات سياسية حديثة توجب الفصل بين السلطات، وإعلاءً حرّاً... إلخ. لم تتحقق هذه المُكتسبات دفعة واحدة، بل راكمتها فرنسا في أكثر من ثلاثة قرون عرفت فيها تجارب ديمقراطية عديدة، لم تخلُ من العنف والانتكاس. ولكن، في كلّ مرّة تنهض فرنسا من أجل ترسيخ دولة الحقّ والقانون، تعيد تأكيد ريادتها، وإعلاء شأن الحرّية والكرامة الإنسانية.

أذنال، سوى الفرنسيين، باعتبارهم بشراً ومواطنين، أمّا غيرهم، فلأمر لا يشملهم، لأنّهم أشبه بكائنات متوحّشة.

بعد موجات الاستقلال الوطنية، سادت فرنسا الأنظمة التي نصّبتها بعد رحيلها، وخصوصاً في أفريقيا، حيث وقفت مع أعتى الديكتاتوريات التي حكمت بالحديد والنار في بلدان غادرتها، بعد أن أحكمت تسليمها إلى طُغَم عسكرية أو زعامات مدنية، جسّدت أسوأ أشكال الفساد والاستبداد، وإعلاءً لمصالح فرنسا الوطنية وعاداتها، ونظّمت انقلابات مُربحة تولّاها أحياناً، مرتزقة فرنسيون. باستثناء حالات نادرة، فقد خذلت فرنسا جُلّ القضايا العربية، وانحازت إلى خصوم العرب.

برهنت فرنسا في الأشهر القليلة الماضية، التي تلت الحرب الصهيونية على غزّة، مرّة أخرى، تبرّمها من الديمقراطية والحرّية، حين صادرت حقّ الفرنسيين في التعبير عن مساندتهم القضية الفلسطينية، وروّجت الرواية الإسرائيلية. إنّها بذلك تُؤكّد انحيازها الباطل، الذي بدأ يتّخذ تعبيرات مُستفزّة مع ليونيل جوسبان (رئيس الوزراء بين 1997 و2002)، حتّى إنّ ستّين برلمانياً من الحزب الاشتراكي الذي ينتمي إليه رئيس الجمهورية الحالي، فرانسوا هولاند، وقّعوا عريضة تدعو إلى مقاطعة منتجات المستوطنات الإسرائيلية، وهو ما رفضه هولاند، وأكّد أنّ فرنسا لن تعترف بأيّ دولة فلسطينية، ما لم يتّفق عليها الإسرائيليون والفلسطينيون، وهو ما يعني أنّ فرنسا لن تعترف بالدولة الفلسطينية أبداً، لأنّ الاحتلال لن يرحل، ولن يتفق أبداً مع الفلسطينيين على أيّ شيء.

لم تكتفِ فرنسا بالانحياز الأعمى لإسرائيل، بخضع الرأي العام الفرنسي منذ سنوات لتلاعب خطير فيما يتعلّق بالقضايا العربية، العاجلة تحديداً. يحاول الرئيس الفرنسي، ماكرون، وأهمّا التصدي لتسونامي اليمين المتطرّف، بعد تنظيمه انتخابات تشريعية مُبكّرة، وبغض النظر عن النتائج، فإنّ البنية الثقافية والتشريعية، التي استقرّت في فرنسا حتّى خلقت حاضنة ذهنية صلبة، ستجعل من تحوّلات الرأي العام الفرنسي نشأة لحقّ المواطنين أكثر احتراماً للتعدّد وللاختلاف ولحقّ الشعوب أمراً مُستبعداً في المنظور القريب. تخسر فرنسا على المستوى الدولي، وتواجه في أفريقيا مثلاً بالطرد، أمّا داخلياً فإنّ اليمين يكاد يستفرد برسم خياراتها الكبرى. لذلك، فإنّ الديمقراطية قد تخور هناك، ولا تجد من يبثّ روحها من جديد.

(أكاديمي ووزير تونسي سابق)

عُراةٌ في دمشق... مُنجزات الرئيس

أيمن الشوفي

استأنفَتْ فكرة التعرّي نصّاً بصرياً محدوداً للغاية، طرا على بعض شوارع دمشق في الآونة الأخيرة، تقديمٌ نفسها نسقاً طارئاً للدلالة، يتأرجحُ بين استنتاجات أمنيةٍ تدينُ تبرؤ الجسد من أغلال هندامه وكياسة حضوره الاجتماعي، وبين توزّط المعاناة العامة في شكل تعبيري غير اعتيادي، وذي هيئةٍ نازفة المضمون وغير مُتّزنة، عبر تحدّي دولة الخوف والبوليس الأعمى، تلك التي سُجن بواسطتها النظام السوري كامل المجتمع، طيلة أكثر من نصف قرن مضى.

فإن يظهر شخصٌ مُعتمراً قبّعةً صيفيّةً سوداء، منتعلاً حذاءً، يسيرُ مُجرداً من ملابسه، قاصداً ساحةَ الأمويين وسط العاصمة دمشق، وثمة من يصوّره من الخلف، فهذا معناه الاستقواء بسرد بصريّ ناقم على المألوف، ولا يطيقه أيضاً، وقد تُجرّأ على نقض سيمياء الجسد المكترث بملابسه، في بلدٍ مسلم كسوريا، لكنّ عاصمته مخطوفةٌ منْ مجازٍ «القتعة»، التي دوّنها الإيرانيون ثقافةً دخيلةً إلى عاصمةٍ أفسدها من احتلّها، وليس القول هنا إنّ ذاك الشهد هو صنيعةٌ إيرانية، وسواه، كالصبيّة التي ظهرت وهي تستحمّ عاريةً في حديقة الجاحظ القريبة من مكتبة الأسد، وساحة الأمويين أيضاً، وجرى تصويرها كذلك.

ولعلّ التفكّر لارتداء الثياب في الحالتَين السابقتَين يقتبسُ شيئاً من التذمّر والرفض للتموضع داخلَ إطارٍ ثابتٍ من الامتثاليّة الجمعيّة، وكأنّ فعل التعرّي هنا، ينتهزُ فرصة الحرّ الشديد، أو الافتقار إلى المياه ذات الاستخدام المنزلي، ليعلنَ صراحةً عدمَ التريّث في قبول ما هو قائم، بل التمادي في التمرّد الحسّي عليه، فمذهب التعرّي أو «الطبيعتيّة»، ومرادفه في اللغة الإنكليزية (Naturism)، هو في الأصل حركة ثقافية وفلسفية ظهرت على أنّها معنيّةٌ بالدفاع عن حرّية ممارسة الحياة من دون ملابس، وكان الألماني «ريتشارد اوتوغوتير» في كتابه «التعرّي» الصادر عام 1906، عرّاب تلك الحركة، التي قمعتها المانيا النازيّة بشدّة، لكنّها أبصرت دروبَ تمظهرٍ جديدةٍ في الولايات المتّحدة، وبريطانيا، وكندا، ثمّ، في عام 1974، عرّاب الاتحاد الدولي الطبيعاني مذهب التعرّي بأنّه نمطُ حياةٍ يحقّقُ انسجاماً كلّياً مع الطبيعة من خلال ممارسة التعرّي بقصد احترام الذات، واحترام ذوات الآخرين أيضاً، وهذا الذي يتناغم بعمقه مع الطبيعة الأمّ.

والرجلُ الذي لا نعرف اسمه بعد، لكنّ أحدهم صوّره وهو يمشي عارياً وسط دمشق، قد يكون غير مكترث بتعريف الاتحاد الدولي الطبيعاني لمذهب التعرّي في الحياة، على الأقلّ، هذا ما أوصلته البِنيا منصّة المسبر الإعلامية، حين عرضت عُريَ الرجل، وقالت إنّه خريجٌ جامعي، وموظّف حكومي، لكنّه باع ثيابه ليشتري بثمنها دواءً لابنته المريضة، وبالرغم من الطابع الدرامي النمطي، الذي تكتسي به هذه السردية، كما معظم سرديّات المحنة والحاجة الشديدة، غير أنّها جاءت هنا لتُبرّئ الرجل من تهمة الجنون، التي طاب لكثيرين وشمهُ بها، ليتطابق عُريُ هذا الرجل سيميائيّاً مع عُريّ النظام الحاكم لسورية، وهو نظامٌ عصابيّ نهّابة، اغتنت مكوّناتها جرّاء إفقار الناس ونهبهم بصورة متواصلة، وبرعاية حثيثة من بشّار الأسد وزوجته التي أخفاها سرطان الدم عن أنظارنا أخيراً.

وتحت أنظارنا رأينا امرأةً تستحمّ عاريةً في حديقة الجاحظ وسط دمشق، كانت تسكب الماء على جسدها من دلو كان إلى جوارها، وهذه فعلةٌ لا تُطالبُ بحَبْر حياةٍ يحقّقُ انسجاماً كلّياً مع الطبيعة من خلال ممارسة التعرّي بقصد احترام الذات، واحترام ذوات الآخرين أيضاً، وهذا الذي يتناغم بعمقه مع الطبيعة الأمّ.

والرجلُ الذي لا نعرف اسمه بعد، لكنّ أحدهم صوّره وهو يمشي عارياً وسط الطريق، في سياق القصيدة البديعة، من نماذج إنسانية مختلفة، استدعى أمّاً نام ابنُها في قبر مُعدّ لها رحل عنها من دون وداع، وشابّاً جامعياً غلبه اليأس (درس الأركيولوجيا من دون أن يجد الهُوّية في الحجارة)، وجنديّاً أنْخنته الحروب، يجمعهم الإحساس المرير نفسه، غير أنّ راكب الحافلة، الذي نكا الجراح، يقول للسائق العصبي: «أمّا أنا فقد تعبت من السفر.. فانزلني هنا».

كتب درويش ذلك في زمن أقلّ وطأةً بملامح وأوجاع مختلفة، رغم ثقلها على الروح المُتعبة، غير أنّها مقارنة بما نمُرُّ به من أهوالٍ في لحظتنا الراهنة هذه، تبدو أقلّ قسوة وإيلاماً. في ذلك الزمن، غير البعيد، لم نُكن قد خذلْنا بعد أنسانيتنا بعد، بل اتقنّا مهارة التضامن مع عذابات الآخرين، وكانت فلسطين قضيتنا الأولى وجرحنا الغائر، حينها، أثّرت بنا القصائد، وأبكتنا الصورة الحزينة، وأثارت غضبنا نشرات الأخبار وبرامج الحوارات السياسية. باختصار، اكترثنا بما يدور حولنا، وتمسّكنا بأحلام الخلاص والحرّية والعدل، ولم نفقد الإيمان بحتمية العودة وإحقاق الحقّ.

لعلّ درويش كان محظوظاً إلى حدّ بعيد فرحل قبل أن يشهد هذا الدرك الأسفل، الذي تعيشه أمّة تخلّت عن نفسها، وتجاهلت عن سابق إصرار وتصميم معاناة أهل غزّة، فلم تعد تهتزّ حتّى بمتابعة، ولو من موقع المُتفرّج، مسلسل القتل والذبح والتجويع والتشريد، وانهمكت في أخبار المطرية شيرين، ومُستجدّات خلافها مع عائلتها، ونزاعها مع شركة روتانا، وإشاعة خطوبتها، ولم يُطمئن للجماهير بالٌ حتّى استمعت إلى تطمينات بصوت المطربة، كثيرة الشكاك، تُؤكّد أنّ في جعبتها باقة من الاغنيات الجديدة، التي سوف تُسعدُ جمهورها الوفي. وفي حين تدقّ إسرائيل طبول الحرب مُهدّدة لبنان بالاجتياح، تُخصّص محطّة لبنانية أكثر من ساعتَين لحوار مع الإعلامية المصرية ريهام سعيد، للحديث عن معاناتها، إثر فشل عمليتها التجميلية، التي أدّت إلى تشويه وجهها. تحدّثت ريهام عن قصتها الأليمة بمصاحبة موسيقى حزينة، وبتأثر واضح في ملامح المذيع، واستضاف كوميديان لبناني، تتسم برامجه الحوارية بالإسفاف والابتذال، الإعلامية الأردنية نادية الزعبي، التي تتوهّم في نفسها خفّة الظلّ، كي تسخر من المرأة الأردنية، وتحطّ من شأنها، وتضعها في مقارنة سخيفة مع المرأة اللبنانية. وتقوم الدنيا في مصر بسبب الإهانة التي وُجّهت للمطربة أنغام، حين لم يحضر حفلها في المغرب سوى عددٌ قليل، وحتّى اللحظة، لم يتوقّف الجدل بخصوص الصفعة التي وجّهها عمرو دياب إلى معجب في حفل زفاف ابنة أحد الأثرياء، واستضاف الإعلامي محمود سعد، الذي تمنّى في تصريح أن تسقط الطائرة به وهو في طريق عودته من الحجّ، كي يقابل وجه ربّه مغسولاً من الذنوب، مُضحّياً بكل بساطة بالركاب وبالطيّار وبطاقم المضيفين. نقول، استضاف سعد مطرياً شهيراً محدود الذكاء في حضور جمهور مصري عريض يبدو سعيداً خالياً من الهموم. ذلك كلّه، وأكثر، يجري في وسائل إعلامنا المتهالكة، فيما أهلنا في غزّة يُذبحون، ويُنكّل بهم في مرأى ومسمع هذه الأمّة المُستغرقة في غيبوبة التفاهة والاضمحلال والانحدار، ما يستدعي من كلّ وطني حرّ صاحب ضمير أن يصرخ من عمق خيبته في وجه سائق عصبي أرعن متهوّر، أمّا أنا فقد أتعبني السفر، أنزلني هنا...

كاريكاتير عماد حجاج

عن الانتخابات وغربتنا في العالم

سميرة المسالمة

تأتي مواسم الانتخابات مثلاً في الولايات المتّحدة أقوى دولة، أو في الهند أكبر ديمقراطية، أو في فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا والبرازيل، أو في دول إسلامية، مثل ماليزيا وتركيا، وحتّى في موريتانيا، أو إيران (رغم أنّها صورية أو تحت قيد المُرشد والحرس الثوري)، لتُؤكّد غربة السوريين في هذا العالم، والتي أدخلت سورية، بلداً وشعباً، في غيبوبة طويلة لا أحد يعرف نهاية لها. بالطبع، لا تُختزل عملية الانتخابات الديمقراطية، إذ لا بدّ أن تتأسّس تلك العملية على حقوق المواطنة، القائمة على الحرّية والمساواة والاستقلالية، في نظام سياسي يفصل بين السلطات، ولكنّها مُؤشر مهمّ، إذ لكلّ إنسان صوت، ولكلّ مواطن حقّ المشاركة في اختيار هيئته التشريعية الحاكمة أو ممّن يحكمه.

في المشهد الكلّي للعالم، تغدو سورية كأنّها بلد خارج العالم، أو كأنّها خارج التاريخ، مع ما في تلك العبارة من مقاربة صحيحة، لكنّ عاصمته مخطوفةٌ منْ مجازٍ «القتعة»، التي دوّنها الإيرانيون ثقافةً دخيلةً إلى عاصمةٍ أفسدها من احتلّها، وليس القول هنا إنّ ذاك الشهد هو صنيعةٌ إيرانية، وسواه، كالصبيّة التي ظهرت وهي تستحمّ عاريةً في حديقة الجاحظ القريبة من مكتبة الأسد، وساحة الأمويين أيضاً، وجرى تصويرها كذلك.

ولعلّ التفكّر لارتداء الثياب في الحالتَين السابقتَين يقتبسُ شيئاً من التذمّر والرفض للتموضع داخلَ إطارٍ ثابتٍ من الامتثاليّة الجمعيّة، وكأنّ فعل التعرّي هنا، ينتهزُ فرصة الحرّ الشديد، أو الافتقار إلى المياه ذات الاستخدام المنزلي، ليعلنَ صراحةً عدمَ التريّث في قبول ما هو قائم، بل التمادي في التمرّد الحسّي عليه، فمذهب التعرّي أو «الطبيعتيّة»، ومرادفه في اللغة الإنكليزية (Naturism)، هو في الأصل حركة ثقافية وفلسفية ظهرت على أنّها معنيّةٌ بالدفاع عن حرّية ممارسة الحياة من دون ملابس، وكان الألماني «ريتشارد اوتوغوتير» في كتابه «التعرّي» الصادر عام 1906، عرّاب تلك الحركة، التي قمعتها المانيا النازيّة بشدّة، لكنّها أبصرت دروبَ تمظهرٍ جديدةٍ في الولايات المتّحدة، وبريطانيا، وكندا، ثمّ، في عام 1974، عرّاب الاتحاد الدولي الطبيعاني مذهب التعرّي بأنّه نمطُ حياةٍ يحقّقُ انسجاماً كلّياً مع الطبيعة من خلال ممارسة التعرّي بقصد احترام الذات، واحترام ذوات الآخرين أيضاً، وهذا الذي يتناغم بعمقه مع الطبيعة الأمّ.

والرجلُ الذي لا نعرف اسمه بعد، لكنّ أحدهم صوّره وهو يمشي عارياً وسط الطريق، في سياق القصيدة البديعة، من نماذج إنسانية مختلفة، استدعى أمّاً نام ابنُها في قبر مُعدّ لها رحل عنها من دون وداع، وشابّاً جامعياً غلبه اليأس (درس الأركيولوجيا من دون أن يجد الهُوّية في الحجارة)، وجنديّاً أنْخنته الحروب، يجمعهم الإحساس المرير نفسه، غير أنّ راكب الحافلة، الذي نكا الجراح، يقول للسائق العصبي: «أمّا أنا فقد تعبت من السفر.. فانزلني هنا».

كتب درويش ذلك في زمن أقلّ وطأةً بملامح وأوجاع مختلفة، رغم ثقلها على الروح المُتعبة، غير أنّها مقارنة بما نمُرُّ به من أهوالٍ في لحظتنا الراهنة هذه، تبدو أقلّ قسوة وإيلاماً. في ذلك الزمن، غير البعيد، لم نُكن قد خذلْنا بعد أنسانيتنا بعد، بل اتقنّا مهارة التضامن مع عذابات الآخرين، وكانت فلسطين قضيتنا الأولى وجرحنا الغائر، حينها، أثّرت بنا القصائد، وأبكتنا الصورة الحزينة، وأثارت غضبنا نشرات الأخبار وبرامج الحوارات السياسية. باختصار، اكترثنا بما يدور حولنا، وتمسّكنا بأحلام الخلاص والحرّية والعدل، ولم نفقد الإيمان بحتمية العودة وإحقاق الحقّ.

لعلّ درويش كان محظوظاً إلى حدّ بعيد فرحل قبل أن يشهد هذا الدرك الأسفل، الذي تعيشه أمّة تخلّت عن نفسها، وتجاهلت عن سابق إصرار وتصميم معاناة أهل غزّة، فلم تعد تهتزّ حتّى بمتابعة، ولو من موقع المُتفرّج، مسلسل القتل والذبح والتجويع والتشريد، وانهمكت في أخبار المطرية شيرين، ومُستجدّات خلافها مع عائلتها، ونزاعها مع شركة روتانا، وإشاعة خطوبتها، ولم يُطمئن للجماهير بالٌ حتّى استمعت إلى تطمينات بصوت المطربة، كثيرة الشكاك، تُؤكّد أنّ في جعبتها باقة من الاغنيات الجديدة، التي سوف تُسعدُ جمهورها الوفي. وفي حين تدقّ إسرائيل طبول الحرب مُهدّدة لبنان بالاجتياح، تُخصّص محطّة لبنانية أكثر من ساعتَين لحوار مع الإعلامية المصرية ريهام سعيد، للحديث عن معاناتها، إثر فشل عمليتها التجميلية، التي أدّت إلى تشويه وجهها. تحدّثت ريهام عن قصتها الأليمة بمصاحبة موسيقى حزينة، وبتأثر واضح في ملامح المذيع، واستضاف كوميديان لبناني، تتسم برامجه الحوارية بالإسفاف والابتذال، الإعلامية الأردنية نادية الزعبي، التي تتوهّم في نفسها خفّة الظلّ، كي تسخر من المرأة الأردنية، وتحطّ من شأنها، وتضعها في مقارنة سخيفة مع المرأة اللبنانية. وتقوم الدنيا في مصر بسبب الإهانة التي وُجّهت للمطربة أنغام، حين لم يحضر حفلها في المغرب سوى عددٌ قليل، وحتّى اللحظة، لم يتوقّف الجدل بخصوص الصفعة التي وجّهها عمرو دياب إلى معجب في حفل زفاف ابنة أحد الأثرياء، واستضاف الإعلامي محمود سعد، الذي تمنّى في تصريح أن تسقط الطائرة به وهو في طريق عودته من الحجّ، كي يقابل وجه ربّه مغسولاً من الذنوب، مُضحّياً بكل بساطة بالركاب وبالطيّار وبطاقم المضيفين. نقول، استضاف سعد مطرياً شهيراً محدود الذكاء في حضور جمهور مصري عريض يبدو سعيداً خالياً من الهموم. ذلك كلّه، وأكثر، يجري في وسائل إعلامنا المتهالكة، فيما أهلنا في غزّة يُذبحون، ويُنكّل بهم في مرأى ومسمع هذه الأمّة المُستغرقة في غيبوبة التفاهة والاضمحلال والانحدار، ما يستدعي من كلّ وطني حرّ صاحب ضمير أن يصرخ من عمق خيبته في وجه سائق عصبي أرعن متهوّر، أمّا أنا فقد أتعبني السفر، أنزلني هنا...

> العُريّ لأجل اللحاق بقضية عامة بهدف تحفيز الانتباه إليها شأن منفصل عن العُريّ لأجل الإمساك بقضية شخصية قبل أن تتلف

يذمّا من عزّاهما، أو لنقل، من أوصلهما إلى طردِ ثيابهما عنهما، كما يبدو من الصعب أيضاً، استدراج ذاك العُريّ إلى مشهديّة الإغواء والاشتهاء، وتناوله وفق ما تُمليه هذه الفرضيّة، باعتبار أنّه عُريٌ منكوبٌ بالحاجة ومحنتها.

عام 2007 قرّرت السلطة في سورية أن تحتفل بالفنّانة التشكيلية الأميركية هالة فيصل، ذات الأصول السوريّة، بأن تقيم لها معرضاً كبيراً في فندق فورسيزونز بعد مرور عامين على تعرّي هالة فيصل في ساحة واشنطن سكوير بارك في نيويورك، بعدما كتبت على ظهرها العاري، وباللون الأحمر، عبارات تدعو إلى وقف الحرب على العراق، وفلسطين، لكنّ عُريَ هالة فيصل، في حينه، لا يشبهُ في منبته عُريَ كل من الرجل والمرأة، اللذَين ظهرا في دمشق أخيراً، فأن يكون العُريّ لأجل اللحاق بقضيةٍ عامةٍ بهدف تحفيز الانتباه إليها، مع استعارة قربان تخليص الجسد من أوزار ثيابه هو شأنٌ منفصلٌ عن العُريّ لأجل الإمساك بقضيةٍ شخصية قبل أن تتلف، حتّى وإن تقاطعت هذه القضية الخاصة مع الهمّ العام في جوانبَ عديدة. ومن غير الشائك أيضاً، الاعتقادُ بأنّ العُريّ الذي تحتدث عنهما في دمشق صارتا هما القضية في ذاتها، أكثر من كون الجسد، الذي غادرته ملابسه، قادراً على الحديث بطلاقةٍ عن أصل المشكلة، التي قادته إلى تلك الحالة بتموضعيها الصادم للعامة، في وقتٍ لا يزال فيه النظامُ السوري ماضياً في اقتعال العُريّ العام، واختبار مازقيّته، ومن ثمّ، تحديد هويّته، وما إن كانت هوية مؤذية الدلالة، أم لا.

كانت المناظرة بين من لا ينبغي أن يأتي رئيساً في مستوى الوظيفة في مثل عمر بايدن (سجّل تراجعاً في استطلاعات الرأي بعد المناظرة)، ولا يمكن أن يتعافى)، ومن لا يستطيع أن يكون رئيساً؛ ترامب المتّهم بقضايا جنائية، ويُظهر حوله الفوضى والاضطراب)، ما اضطر القناة التلفزيونية إلى إدخال تغييرات مثل قطع المايكروفون لضمان أن يتمكّن كلّ مرشّح من التحدّث من دون مقاطعة، مع تقييد حركة الجسد، والإبقاء على تعبيرات الوجه وعلى حركة اليدَين، وعلى الإيماءات والوضعية الجسدية العامة من دون التفاعل مع المحاورين.

لا مجال للمقارنة بين شخصية مُرشّحَيْن على تناقض كبير في سياستيهما الداخلية والخارجية، ولا حاجة إلى التحليل النفسي بشكل مُتقدّم عندما يتعلّق الأمر بفهم سلوكهما، وفهم مواقفهما واستراتيجياتهما. لذلك، كانت المناظرة محطّة أخرى من عدم الوضوح، وهي أيضاً، سمة الانتخابات التشريعية الفرنسية (ترجيح أكثريّة ستكون لصلحة التجمّع الوطني، وقيام تحالفات مخالفة لآليات عمل النظام المعمول به في الجمهورية الخامسة). على العموم، كانت المناظرة تعبيراً عن الديمقراطية الأميركية المعاصرة في التعامل مع الإنترنت، مع زيادة استخدام وسائل التواصل الاجتماعي. وكانت ردّات الفعل، والتعليقات الفورية من الناس، أكثر وضوحاً وتأثيراً. وفي صعيد الردود الدولية، رُكّب الحلفاء التقليديون من الدول الأوروبية وكندا، بأداء بايدن الهادئ والمستقرّ، وبالعودة إلى الدبلوماسية التقليدية في العلاقات الدولية. ورأى المنافسون الحاليون مثل روسيا والصين في فوضى المناظرة انعكاساً للأزمة السياسية الداخلية في الولايات المتّحدة، أمّا الأسواق المالية فهي تميل إلى الاستقرار، مع رؤية مُرشّح مُستقرّ يمكن التنبؤ به عاملاً إيجابياً مساعداً للتجارة الدولية والعلاقات الاقتصادية.

في التقييم الشامل، يحتاج العالم إلى صورة أكثر استقراراً واعتدالاً. وهذا يلاقي قبولاً في نطاق واسع، داخلي وخارجي، في حين أن العدائية والكراهية تُنفّران الباحثين المستقلّين الذين يبحثون عن أميركا الأكثر هدوءاً، قبل أن يكون الرئيس جمهورياً أو ديمقراطياً. والديمقراطية في صعيد قواعد الدعم الخاصة بكلّ مُرشّح. رأى أنصار ترامب في أدائه قوّة، بينما اعتبر أنصار بايدن أداءه هادئاً ومتماسكاً. وانقسمت وسائل الإعلام الأميركية بسبب الفوضى والمغالطات. ورأى بعض المُحلّلين أنّ بايدن تمكن من الحفاظ على هدوئه، وتقديم رسالة واضحة رغم تباطئه وتردّده، بينما كانت استراتيجية ترامب تتعمّد الهجوم المباشر والمغالطة. لكنّ الشبكة التلفزيونية، الأكثر تأثيراً في الميدان الأميركية والعالمية، عمدت بطريقة غير مسبوقة إلى إظهار الحزب الديمقراطي في موقع أضعف، وإلى تحميل الرئيس بايدن مسؤولية الأداء الضعيف، وإلى تجاهل أو تقليل أهمية أداء ترامب.

> العُريّ لأجل اللحاق بقضية عامة بهدف تحفيز الانتباه إليها شأن منفصل عن العُريّ لأجل الإمساك بقضية شخصية قبل أن تتلف

يذمّا من عزّاهما، أو لنقل، من أوصلهما إلى طردِ ثيابهما عنهما، كما يبدو من الصعب أيضاً، استدراج ذاك العُريّ إلى مشهديّة الإغواء والاشتهاء، وتناوله وفق ما تُمليه هذه الفرضيّة، باعتبار أنّه عُريٌ منكوبٌ بالحاجة ومحنتها.

عام 2007 قرّرت السلطة في سورية أن تحتفل بالفنّانة التشكيلية الأميركية هالة فيصل، ذات الأصول السوريّة، بأن تقيم لها معرضاً كبيراً في فندق فورسيزونز بعد مرور عامين على تعرّي هالة فيصل في ساحة واشنطن سكوير بارك في نيويورك، وباللون الأحمر، عبارات تدعو إلى وقف الحرب على العراق، وفلسطين، لكنّ عُريَ هالة فيصل، في حينه، لا يشبهُ في منبته عُريَ كل من الرجل والمرأة، اللذَين ظهرا في دمشق أخيراً، فأن يكون العُريّ لأجل اللحاق بقضيةٍ عامةٍ بهدف تحفيز الانتباه إليها، مع استعارة قربان تخليص الجسد من أوزار ثيابه هو شأنٌ منفصلٌ عن العُريّ لأجل الإمساك بقضيةٍ شخصية قبل أن تتلف، حتّى وإن تقاطعت هذه القضية الخاصة مع الهمّ العام في جوانبَ عديدة. ومن غير الشائك أيضاً، الاعتقادُ بأنّ العُريّ الذي تحتدث عنهما في دمشق صارتا هما القضية في ذاتها، أكثر من كون الجسد، الذي غادرته ملابسه، قادراً على الحديث بطلاقةٍ عن أصل المشكلة، التي قادته إلى تلك الحالة بتموضعيها الصادم للعامة، في وقتٍ لا يزال فيه النظامُ السوري ماضياً في اقتعال العُريّ العام، واختبار مازقيّته، ومن ثمّ، تحديد هويّته، وما إن كانت هوية مؤذية الدلالة، أم لا.

كانت المناظرة بين من لا ينبغي أن يأتي رئيساً في مستوى الوظيفة في مثل عمر بايدن (سجّل تراجعاً في استطلاعات الرأي بعد المناظرة)، ولا يمكن أن يتعافى)، ومن لا يستطيع أن يكون رئيساً؛ ترامب المتّهم بقضايا جنائية، ويُظهر حوله الفوضى والاضطراب)، ما اضطر القناة التلفزيونية إلى إدخال تغييرات مثل قطع المايكروفون لضمان أن يتمكّن كلّ مرشّح من التحدّث من دون مقاطعة، مع تقييد حركة الجسد، والإبقاء على تعبيرات الوجه وعلى حركة اليدَين، وعلى الإيماءات والوضعية الجسدية العامة من دون التفاعل مع المحاورين.

لا مجال للمقارنة بين شخصية مُرشّحَيْن على تناقض كبير في سياستيهما الداخلية والخارجية، ولا حاجة إلى التحليل النفسي بشكل مُتقدّم عندما يتعلّق الأمر بفهم سلوكهما، وفهم مواقفهما واستراتيجياتهما. لذلك، كانت المناظرة محطّة أخرى من عدم الوضوح، وهي أيضاً، سمة الانتخابات التشريعية الفرنسية (ترجيح أكثريّة ستكون لصلحة التجمّع الوطني، وقيام تحالفات مخالفة لآليات عمل النظام المعمول به في الجمهورية الخامسة). على العموم، كانت المناظرة تعبيراً عن الديمقراطية الأميركية المعاصرة في التعامل مع الإنترنت، مع زيادة استخدام وسائل التواصل الاجتماعي. وكانت ردّات الفعل، والتعليقات الفورية من الناس، أكثر وضوحاً وتأثيراً. وفي صعيد الردود الدولية، رُكّب الحلفاء التقليديون من الدول الأوروبية وكندا، بأداء بايدن الهادئ والمستقرّ، وبالعودة إلى الدبلوماسية التقليدية في العلاقات الدولية. ورأى المنافسون الحاليون مثل روسيا والصين في فوضى المناظرة انعكاساً للأزمة السياسية الداخلية في الولايات المتّحدة، أمّا الأسواق المالية فهي تميل إلى الاستقرار، مع رؤية مُرشّح مُستقرّ يمكن التنبؤ به عاملاً إيجابياً مساعداً للتجارة الدولية والعلاقات الاقتصادية.

في التقييم الشامل، يحتاج العالم إلى صورة أكثر استقراراً واعتدالاً. وهذا يلاقي قبولاً في نطاق واسع، داخلي وخارجي، في حين أن العدائية والكراهية تُنفّران الباحثين المستقلّين الذين يبحثون عن أميركا الأكثر هدوءاً، قبل أن يكون الرئيس جمهور

المحكمة الإسرائيلية العُليا والحريديم... الجميع خاسر

أحمد الجندي

لم تعد إسرائيل تعرف الهدوء، فهي تخرج من عاصفةٍ إلى عاصفة، ومن أزمةٍ إلى أخرى. هكذا أصبحت، وهكذا أصبح الإسرائيليون يستيقظون في كلّ يوم على وقع صراعات لا تنتهي، فقد جاء قرار إلزام الدولة بتجنيد الحريديم (يهود متدينون)، الذي أصدرته المحكمة العليا يوم الثلاثاء الماضي (25 يونيو/ حزيران)، ليكون بمثابة حجر كبير في ماء هائج أصلاً، وليثير ضجّة كبيرةً في المجتمع الإسرائيلي.

يطرح قرار المحكمة، الصادر بإجماع أعضائها، تساؤلات مُهمّة عديدة؛ يتعلق بعضها بمدى مصداقية تصريحات المطالبين بتجنيد الحريديم، التي تقول إنّهم ينطلقون بدافع المبدأ، وليس المصلحة الخاصّة والمناكفة السياسية، وبعضها يرتبط بتوقيت القرار ومدى صلته باحتياجات الجيش، وهل يُعتبر قراراً سياسياً أم قانونياً؟ وهناك أسئلة أخرى عن التبعات المحتملة للقرار، ومدى استعداد «الحريديم» للاستسلام له. وأخيراً، وهو المهمّ، مدى استطاعة من لا يرغب في التجنيد أصلاً أن يكون جندياً مقاتلاً، وإلى أيّ درجة يمكن أن يعتمد عليه الجيش، وقد أظهرت الأشهر الثمانية الماضية أنّ الاستعداد القتالي لدى الجنود المدرّبين لم يكن في المستوى المقبول لجيشٍ يوصف بأنّه الأقوى في المنطقة؟

إعفاء «الحريديم» من التجنيد كان مثالاً للترتيبات التي تجري داخل الشركات الخاسرة، كما قال زعيم المعارضة يائير لبيد تعليقاً على قرار المحكمة، وهو محقٌّ. فمن المفهوم أن يكون الأساس الأكثر أهمّية لأيّ نظام دولة تحترم نفسها تشارك جميع مواطنيها في الأعباء، وألّا تكون هذه الأعباء مُلقاةً على طرف بعينه، وأن يُطبّق المبدأ على الجميع، مثلما تقول أغلب قوى المعارضة، بل وبعض أعضاء الليكود أيضاً. لكن، إذا كانت المسألة تتعلّق بالمبدأ فعلاً، كما يقولون، فلماذا كان ديفيد بن غوريون أول من طبّق هذا الإعفاء منذ قيام الدولة، ولماذا استمرّ هذا الإعفاء أو تغيّرت أشكاله وطريقته، ما بين إعفاء جزئي أو كلّي، أو تسهيل شروط التجنيد في عهد حكومات يمينية ويسارية كثيرة على السواء؟

حين نعود إلى تاريخ إعفاء «الحريديم» من الخدمة العسكرية نجده يبدأ مع الأعوام الأولى من تأسيس الكيان، فقد طبّقه بن غوريون في 1948 في حقّ أربعمائة حريدي بناءً على طلب من القوى الحريدية حينها على خلفية تعرّض جنود حريديم للتنمر والعقاب العسكري بسبب مراعاتهم للتقاليد الدينية، ثم بدأ الأمر بالاتّساع من تلك اللحظة، لكنّه كان من دون سنّ أيّ قوانين. وهذا يعني أنّ الدولة نفسها، والقوى التي كانت تديرها في ذلك الوقت، لم تكن تنظر إلى الموضوع من ناحية «المبدأ»، بل إنّ أحداً حينها لم يذكر مصطلح «المساواة في العبء»، الذي تطرحه حالياً القوى العلمانية، في اليمين والوسط واليسار، في دولة الاحتلال. الأكثر من ذلك، أنّ المحكمة العليا نفسها رفضت أكثر من مرّة، في 1970و1981، دعاوى مرفوعة ضدّ إعفاء «الحريديم» من التجنيد، حتّى إنّها في 1988 أعطت الحقّ لوزير الحرب في منح الإعفاءات، واعتبرت أنّ الحسابات الدينية التي راعاها الوزير عند اتّخاذ قرار الإعفاء، حسابات قانونية. وهذا يعني أنّ موضوع إعفاء الحريديم، في المستوى السياسي، أو حتّى القضائي، لم يكن، في أيّ وقت، قضية مبدأ، بل كان دائماً خاضعاً لحسابات السياسة والمصالح، ومن المُؤكّد أنّ حسابات المصلحة، والترتيبات الخاصّة، والابتزاز السياسي، كانت تزداد كلّما تقدّم عمر دولة الاحتلال.

ويفيد تقرير، نشرته صحيفة غلوبس الإسرائيلية في مارس/ آذار الماضي، بأنّ الإجمالي السنوي لـ«الحريديم» الملتحقين بالخدمة العسكرية بلغ 1200 سنوياً في الأعوام الثلاثة الماضية، وإلى أنّه رغم الأحداث التي وقعت في 7 أكتوبر/ تشرين الأول (2023)، لم يحدث تغيير يستحقّ الذكر في هذه الأرقام. وتتحدّث عضو الكنيست عن حزب إسرائيل بيتنا، شارون نير، عن أنّ عدد الحريديم، الذين يمكن أن يلتحقوا بالجيش إن عُدّلت شروط التحاقهم بالخدمة يمكن أن يصل إلى ستين ألفاً. ويبدو أنّ هذا الرقم الكبير هو الذي يغري الجميع حالياً، في ظلّ ما تحدّث عنه منذ أيام زعيم حزب إسرائيل بيتنا، أفيغدور ليبرمان، أنّ عدد من خرجوا من الخدمة نتيجة القتل أو الإصابة، يقدّر بلواء كامل، علماً أنّ قوّة اللواء تزيد على خمسة آلاف جندي. وأغلب الظنّ أنّ هذا العدد ليس الإجمالي لمن ابتعدوا من الخدمة العسكرية في الأشهر التسعة الماضية، وأنّ هذا العدد يُعبّر فقط عمّن قتلوا أو تعرّضوا لإصابات دائمة كبتر أطراف وخلافه، منذ بداية الحرب. يُؤكّد ذلك ما أعلنته صحيفة يسرائيل هيوم في 18 يونيو/ حزيران، أنّ عدد مصابي الجيش الذين يتلقّون برامج تأهيل من وزارة الحرب الإسرائيلية تخطّى سبعين ألفاً للمرّة الأولى، ما يعني أنّ الجيش الإسرائيلي يواجه نقصاً كبيراً في أعداد الجنود، وهو ما عكسته تصريحات القادة العسكريين والسياسيين، وقوانين مدّ الخدمة العسكرية، وسنّ التقاعد لجنود وضبّاط الاحتياط خلال الفترة الماضية.

ولذلك، من المرجّح أنّ قرار المحكمة العليا، إذا وضعنا المعطيات السابقة في الاعتبار، سياسي، وأنّ المحكمة بإصدارها هذا القرار تمثّل مؤسّسات الدولة العميقة، التي تخشى من أن يُؤدّي النقص الحالي، ومعروفٌ للجميع، في عدد المقاتلين في الجيش إلى هزيمة تاريخية، وعدم القدرة على تحقيق أهداف الجيش في الحرب، أو تلبية الحاجات اللازمة المتزايدة في ما يخصّ احتمالات فتح جبهة حرب واسعة في الشمال ضدّ حزب الله.

وتشير ردّات الفعل الحريدية الأولية إلى رفض تامّ لقرار المحكمة، وإلى استعدادٍ لإشعال الوضع. فمن المعروف أنّ شعاراتٍ مثل «نفضّل الموت على الخدمة العسكرية» أو «نعم للسجن، لا للتجنيد» تصدّرت احتجاجات الحريديم ومظاهراتهم الرافضة لأيّ تعديل قانوني يتعلّق بموقفهم من التجنيد، فهم يرون أنّ دراسة التوراة هي التي توفّر الحماية للجيش، أو أنّها هي التي «تصنع المعجزات»، بحسب تعبير رئيس حزب شاس، الذي يمثّل الحريديم الشرقيين، أرييه درعي، مع تلويح بعضهم بأنّ القرار يقود إلى تقسيم الكيان إلى دولتَين، وأنّ المحكمة العليا تحوّلت مؤسّسةً دكتاتورية، واستولت على السلطة من يد الحكومة المُنتخَبة، وتريد إشعال حرب دينية في الشوارع،

> الأساس الأكثر أهمّية لأيّ نظام دولة تحترم نفسها تشارُك جميع مواطنيها في الأعباء، وألّا تكون هذه الأعباء مُلقاةً على طرف بعينه

> لم يكن إعفاء الحريديم من التجنيد، في المستوى السياسي، أو حتّى القضائي، قضية مبدأ، بل كان دائماً خاضعاً لحسابات السياسة والمصالح

على حدّ تعبير بعض أعضاء حزب يهدوت هتوراة، الذي يمثّل الحريديم ذوي الأصول الغربية. ومن المفيد أن نشير إلى أنّ رفض التجنيد عند قطاع واسع من الحريديم يرتبط بأسبابٍ أيديولوجيةٍ قديمة. فبعض الحريديم، خُصوصاً من حزب يهدوت هتوراة، ينطلقون في موقفهم هذا من عداءٍ للصهيونية، مثلما يقول عضو الكنيست عن إسرائيل بيتنا، يفغيني سوبا. ويبني فريق آخر منهم موقفه على أسبابٍ ترتبط بالصراع بين الحريديم والعلمانيين، وهو أيضاً، موقف قديم يعود لأفكارٍ واكبت ظهور الصهيونية وتخوّف اليهود التقليديين من علمانية مؤسّسيها، والاعتقاد في أنّهم سيُلحِقون الضرر بالديانة اليهودية، ومن هنا، فإنّ الحريديم، رغم مشاركتهم في الائتلافات الحكومية المختلفة، ظلّوا رافضين للعلمانية في مؤسّسات الدولة، ومن بينها الجيش. وهذا يعني أنّ أحد جوانب رفض الخدمة، أو ربّما البحث عن أفضل شروط لأدائها عبر المساومات الانتهازية السياسية، يأتي في سياق الصراع بين «الحريديم» والعلمانيين، وفي هذا السياق أيضاً، يأتي رفضهم لكثيرٍ من قرارات المحكمة العليا، بل ورغبتهم في تمرير قوانين الثورة القانونية، التي كانت تكبّل يد هذه المحكمة، والتي تعطّلت نتيجة عملية طوفان الأقصى.

ما يزيد من خطورة تبعات القرار، واحتمالية دفعه الحريديم إلى المواجهة، أنّه يمكن أن يُؤسّس لإيقاف أيّ مساعدات أو مبالغ ماليّة تمنحها الدولة للحريديم، وللمعاهد الدينية بالتبعية، إذا امتنع الطلّاب الذين تنطبق عليهم شروط الخدمة العسكرية عن الالتحاق بالجيش، وهو ما يعني وضع الحريديم تحت طائلة الضغوط الاقتصادية، وحينها، سيصبح شعارهم الحالي «نموت ولا نذهب للتجنيد» أمام اختبار حقيقي. وهو ما يضع الحريديم أمام خيارين: إمّا الانصياع للقرار (لم يعد يُتحمّل أصلاً) وإمّا النزول إلى الشارع. وفي الوقت نفسه، قد يدفع قادتهم إلى التفكير في جدوى بقائهم في الحكومة إذا لم تكن لديهم القدرة على تحقيق ما يريده أنصارهم، وهو ما تنتظره المعارضة بالطبع.

هكذا جاء قرار المحكمة ليعقّد المشهد، ويصبّ مزيداً من الزيت على نارٍ لم يعد في الإمكان إخمادها، في وقت كان من المفترض بالمجتمع أن يرمّم جراحاته التي نكأتها معركة طوفان الأقصى، وأن يسدّ الثغرات التي كشفتها، ويعالج أزماته الكُبرى، التي أصبح العالم كلّه يراها بوضوح، لكنّ المُؤكّد أنّ هذا الكيان بقيادته الحالية، في الموالاة والمعارضة، قد وصل إلى نقطة اللاعودة، ولم يعد في مقدوره وقف الانهيار، ولا منع القدر من الوصول إلى مراده.

(كاتب مصري)

في خسارة الإدارة الأميركية الرأي العام العربي

أنور الجمعاوي

علّق كثيرون من العرب والمسلمين آمالاً عريضةً على صعود جو بايدن إلى كرسيّ رئاسة الولايات المتّحدة، مُنذ 20 يناير/ كانون الثاني 2021. وظنّوا أنّه سيكون عنوانَ سلام في المنطقة، وسيعمل على الحدّ من سياسات الغطرسة الإسرائيلية، وإقرار حلّ عادل للقضية الفلسطينية، بالتوازي مع دعم مشروع الديمقراطية في العالم العربي، وذلك باعتبار بايدن عضواً في الحزب الديمقراطي، ونقيضاً للرئيس الجمهوري، اليميني السابق دونالد ترامب، وسبق أن حصل على وسام الحرّية عام 2017، وشغل منصب نائب رئيس الولايات المتّحدة الـ47 من عام 2009 إلى 2017، إبّان حكم الرئيس باراك أوباما، ومعروف بميوله الديمقراطية، وبمعارضته حرب الخليج الأولى في 1991، وتأييده انسحاب القوات الأميركية من العراق عام 2011، ورفضه إرسال تعزيزات عسكرية إلى أفغانستان عام 2009. لكن ما يبدو، بعد مضي ثلاث سنوات ونصف السنة من إشراف الرئيس بايدن على الإدارة الأميركية، بحسب مُراقبين، أنّ شيئاً من تلك الآمال لم يتحقّق. فحركة الربيع العربي آلت إلى الانحسار، وجرى غلق قوس الديمقراطية في معظم البلدان العربية، ولم تتغيّر السياسة الخارجية الأميركية في انحيازها المطلق للسياسات الإسرائيلية في المنطقة. وقد أدّى ذلك النهج إلى نفور الرأي العام العربي من الإدارة الأميركية، وإلى تنامي مشاعر الإحباط والإحساس بالغضب في الشارع العربي إزاء سياسات واشنطن.

ومثّل تفاعل الإدارة الأميركية الحالية مع عملية طوفان الأقصى، وانخراطها في موجة تأييد عارمة لإسرائيل إعلامياً، وسياسياً، ولوجيستياً، واقتصادياً، وعسكرياً، في مقابل إدانتها فصائلَ المقاومة الفلسطينية، عاملاً حاسماً، بحسب استطلاعات رأي موثوقة، في تراجع شعبية واشنطن في الداخل العربي، وفي تنامي مشاعر الكراهية ضدّ سياساتها. ولذلك تجلّيات عدّة وتداعيات جمّة. من المفيد الإشارة، أولاً، إلى أنّ القضيّة الفلسطينية قضيّة جامعة، يلتقي عندها جُلُّ العرب على اختلاف انتماءاتهم الأيديولوجية والفكرية والدينية والجهوية والطبقية. ويلتفّ حولها الحاكم والمحكوم على حد سواء. وفي هذا السياق، أفاد استطلاع المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بعنوان «اتجاهات الرأي العام العربي نحو الحرب الإسرائيلية على غزّة» بأنّ 92% من المستجوبين العرب يعتبرون القضيّة الفلسطينية «قضيّة جميع العرب، وليست قضيّة الفلسطينيين وحدهم»، وعبّر 97% عن أنّهم يشعرون بضغط نفسي (بدرجات متفاوتة) نتيجة للحرب على غزّة، بل إنّ 84% قالوا إنّهم يشعرون بضغط نفسي كبير. وقد أفاد نحو 80% من المُستطلَعين أنّهم يداومون على متابعة أخبار الحرب، وعبّر 92% عن تضامنهم مع الشعب الفلسطيني في محنته، وعن إدانتهم الانتهاكات الإسرائيلية لحقوقه. وأخبر ذلك بأنّ القضية الفلسطينية جزء من المشترك القومي والوجودي العربي، وهي قضية مركزية راسخة في الوعي الجمعي عبْر الزمان والمكان وتعاقب الأجيال. وبناءً عليه، الموقف من القضيّة الفلسطينية عموماً، ومن الحرب على غزّة خصوصاً، ومدى الإقرار بحقوق الشعب الفلسطيني التاريخية والمشروعة في الحرّية، والكرامة، والعدالة، والعودة، وبناء الدولة، وتقرير المصير، هي معايير أساسية يعتمدها جُلُّ العرب في تحديد مواقفهم من سياسات هذه الدولة أو تلك.

والناظر في سياسات الإدارة الأميركية في امتداد عقود يتبيّن عدم وقوفها على الحياد في النزاع العربي الإسرائيلي، واصطفافها غالباً، إلى جانب إسرائيل، وعدم جدّيتها في الضغط من أجل احترام حقوق الفلسطينيين، وتحويل مطالبهم المشروعة من حُلم إلى واقع. وقد تأكّد هذا التوجّه الرسمي الأميركي خلال الحرب الدامية، التي تشنّها دولة الاحتلال على الحجر والبشر في غزّة منذ تسعة أشهر. فقد سلّمت الإدارة الأميركية بالسردية الإسرائيلية لأحداث 7 أكتوبر (2023)، وتوابعها، وأيّدت قرار بنيامين نتنياهو شنّ عدوان غاشم على القطاع لتحقيق أهداف ضبابية فضفاضة، من قبيل القضاء على المقاومة الفلسطينية عموماً، و«حماس» خصوصاً، وتحرير الأسرى الإسرائيليين، وتحييد قطاع غزّة حتّى لا يُشكّل خطراً مستقبلياً على دولة الاحتلال، وإعادة تشكيل الواقع السياسي في القطاع، وإنهاء إدارته من جانب حركة حماس. ووفّرت واشنطن، بحسب ملاحظين لحكومة نتنياهو اليمينية المُتطرّفة، الدعم المادّي واللوجيستي، والإسناد الاقتصادي والعسكري، والغطاء الدبلوماسي اللازم للاستمرار في حرب عبثية على امتداد شهور. كما رفضت إحالة إسرائيل على محكمة العدل الدولية، ونَدّدت بإصدار محكمة الجنايات الدولية مُذكّرات اعتقال بشأن قادة إسرائيليين، وشكّكت في تهم منسوبة لدولة الاحتلال من قبيل ارتكاب جرائم حرب، وإبادة جماعية، وانتهاك قواعد الاشتباك، وفي محامل القانون الإنساني الدولي. وعطّل المندوب الأميركي في مجلس الأمن، من خلال استخدام حق النّقض (فيتو)، صدور ما لا يقلّ عن ثلاثة قرارات لإدانة إسرائيل، وإلزامها بوقف إطلاق النار بشكل دائم.

وتابع المواطن العربي هذه السياسات الأميركية المُبالِغة في انحيازها إلى إسرائيل مباشرة عبر شاشات التلفزيون وشبكات التواصل الاجتماعي، في زمن معولَم ومُرقمَن، وخلّف ذلك حالة من الاستياء العام في الشارع العربي إزاء الإدارة الأميركية بقيادة بايدن. وقد حاول البيت الأبيض، لاحقاً، اتّخاذ بعض التدابير لتعديل السياسة الخارجية الأميركية بشأن العدوان الإسرائيلي على غزّة، من قبيل دعوة إسرائيل إلى تيسير إدخال ما يكفي من المساعدات الإنسانية إلى القطاع، وحثّها على عدم استهداف المدنيين، وتقليص عدد الضحايا في صفوفهم قدر الإمكان، والقيام بعمليات إنزال جوي للمساعدات في القطاع ومدّ رصيف قبالة شاطئ غزّة لهذا الغرض. ومع أهمية هذه التدابير في إظهار الوجه الإنساني للولايات المتّحدة، فإنّها لا تكفي للحدّ من شيوع انطباع سلبي إزاء سياسات واشنطن، وتشكّل رأي عام عربي مناهض لها في المنطقة. وتؤكّد ذلك استطلاعات رأي موثوقة. بحسب استطلاع الرأي العام الذي أجرته المجموعة المُستقلّة للأبحاث وشركاؤها في المنطقة، الذي شمل عيّنات من ستّ دول عربية مُهمّة (العراق، وسورية، والأردن، ومصر، ولبنان، وفلسطين) من 17 . 29 أكتوبر/ تشرين الأول 2023، تبيّن أنّ دعم الولايات المتحدة دولة الاحتلال في حربها على غزّة كلّف واشنطن خسارة عقول العرب وقلوبهم، في مقابل تنامي شعبية

> استمرار الإدارة الأميركية في دعم الحرب الإسرائيلية على غزّة أدّى إلى خسارتها عقوداً من الدبلوماسية الهادفة إلى تلميع صورتها في العالم العربي

منافسيها في المنطقة. فقد بلغت نسبة العرب الذين يعتقدون أنّ للولايات المتّحدة دوراً إيجابياً في حرب غزة 7% فقط. وقال 2% من المستجوَبين في الأردن إنّهم يثقون في الولايات المتّحدة، في مقابل 25% يثقون بروسيا، و24% يثقون بالصين. وبلغت الثقة بأميركا 7% في العراق في مقابل 33% لإيران، و33% للصين و36% لروسيا. أمّا في مصر فقد بلغت الثقة بأميركا 9% فقط، في مقابل 51% لروسيا، والنسبة نفسها لإيران و47% للصين. و«تعدّ هذه الأرقام هي الأدنى لصالح أميركا طوال السنوات العشرين الماضية».

ورد في نتائج استطلاع المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات أنّ الرأي العام العربي يعارض سياسة الولايات المتّحدة تجاه الحرب على غزّة، فقد قيّم 94% من المستجوبين موقفها بـ«سيئ» و«سيئ جدّاً»، وقال 82% إنّه «سيئ جدّاً». وسئل المستطلعة آراؤهم إذا ما كان هنالك تحوّل في موقفهم نحو الولايات المتّحدة بُعيد الحرب الإسرائيلية على غزّة. فأفاد 76% أنّ موقفهم أصبح أكثر سلبية، في حين قال 19% إنّ موقفهم لم يتغيّر، بينما أفادت نسبة 1% أنّ موقفها أصبح أكثر إيجابية. وأظهر استطلاع، أنجزته شبكة الباروميتر العربي في تونس، أنّ الحملة العسكرية الإسرائيلية في غزّة هي التي دفعت بالأساس إلى انحسار الآراء الإيجابية تجاه الإدارة الأميركية. ففي الأسابيع الثلاثة السابقة على 7 أكتوبر، قال 40% من المستجوبين في تونس إنّهم يحملون آراءً إيجابية تجاه الولايات المتّحدة، وبحلول 27 أكتوبر، ولم تكن قد انقضت بعد ثلاثة أسابيع على بدء العمليات العسكرية الإسرائيلية في غزّة، قال الشيء نفسه 10% من التونسيين فقط.

وبناء عليه، يرى مراقبون أنّ لاستمرار الإدارة الأميركية في دعم الحرب الإسرائيلية على غزّة تداعيات سلبية على مكانة واشنطن في المنطقة، وأدّى عملياً إلى خسارتها عقوداً من الدبلوماسية الناعمة الهادفة إلى تلميع صورتها في العالم العربي، وتزايد مشاعر الغضب من سياساتها، في مقابل تصاعد شعبية خصومها (روسيا، والصين، وإيران) في المنطقة، وتوجّه كثيرون من المواطنين العرب إلى مقاطعة بضائعها، ويُخشى من أن تستغلّ الجماعات المُتشدّدة تنامي الاستياء الشعبي، من أميركا خصوصاً، والغرب عموماً، لإعادة إنتاج ظاهرة التطرّف العنيف على نحو يُهدّد المصالح العربية والأميركية في آن. ومعلوم أنّ هذه التداعيات تتعارض مع محامل وثيقة استراتيجية الأمن القومي، التي وقّعها الرئيس بايدن في أكتوبر/ تشرين الأول 2022، التي نصّت على أنّ أولويات السياسة الخارجية الأميركية هي ضمان التفوّق على الصين، والحدّ من نفوذ روسيا، ومكافحة الإرهاب في الشرق الأوسط.

خِتاماً، إذا كانت الإدارة الأميركية معنية بإصلاح سياساتها في المنطقة، وباسترجاع ثقة الشعوب العربية، فأحرى بها أن تلتفت إلى صرخات المدنيين الفلسطينيين الذين أدمتهم الحرب، وأن تضع حدّاً لمأساتهم، عبر فرض وقفٍ دائم لإطلاق النار، وإلزام طرفي النزاع بالجلوس إلى طاولة التفاوض، وبلورة سلام عادل يضمن حقّ الفلسطينيين في إقامة دولتهم المُستقلّة. أمّا التمادي في محاباة إسرائيل والاحتكام إلى لغة البنادق، فلن يُضمّدا الجراح، ولن يضمنا الأمان لإسرائيل، وسيزيدان من اتساع الفجوة بين العرب وأميركا لمصلحة معسكر الشرق لا محالة.

(أستاذ جامعي تونسي)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads